بقلم : محمد عبد الحليم عبد الله

كان يسائل نفسه كلما دخلت عليه « لماذا يبدو عليها التفكير هكذا ؟! » ولم يكن هو في حقيقته امرء من الذين يملكون الجراة للكشف عن أسرار الناس ... لم يكن فضولياً . غير أنه لم يستطع ان يتناسى هذا السؤال منذ عينت الآنسة « آمال » كاتبة في الحسابات تحت اشرافه في المؤسسة .

ومنذ رآها اول يوم ازداد ايمانا بان المهن قد لا تختار أصحابها في كثير من الاحوال ... نعم ... فعودها الدقيق وكفها الصغيرة ومزاجها العاطفي المتقلب ... وعيناها اللتان تتمارك فيهما افكار وذكريات اكبر من عمرها ذي العشرين عاما ... وصوتها الشاكي حتى في حالات السرور — كل هذا يبقى منها بنانا صنعة كاتبة حسابات وبرشحها ... لماذا ؟! ...

كان يفكر وهو غارق في «المراجعة» مما تصلح له الآنسة آمال ... ظل يجمع ويطرح بذهن شارد ... وتناهى اليه عزف « بيانو » من احد البيوت القريبة يخلط عبيره بصحيح المواصلات كما تختلط أرقام الحسابات بافكاره عنها ... عندئذ وثب الى ذهنه خاطر هو انها لا تصلح الا ان تكون « عازفة » ...

وابتسم لافكاره ونظر الى مكتبها الخالي في حجرته . ثم نظر في الساعة انها تكاد تلمع الناسعة . ووجد نفسه يسأل نفسه من خلال عمليات « الضرب » وتصحيح المواصلات وعبير العزف : « لماذا تأخرت اليوم ؟! »

واحس يد تقبض قلبه بلطف لكنه كان في عنف لمسة المجروح . ومط شفته اشمئزازا من فكرة انه سيتعلق بها . راى ذلك محالا . فحديث الحب عنده فراغ او لهو أو خرافة . وهو ليس في فراغ ولا من طبعه اللهو ولا يؤمن بالخرافات ...

وعاد يراجع الحسبة امامه فادا بها مليئة بالخطأ . فابتسم ... ووضع قلمه وطلب فنجالا من القهوة ثم عاد ينظر الى مكانها الخالي ...

وفي هذه اللحظة سمع وقع حذاء عال مستعجل الخطا على بلاط الممر الطويل المؤدي الى الحجرة . ثم مالبث ان رآها داخلة تجيء وتصدر وتجلس وتتعلع قفازها وتتنهد وترمي باحدى خصلات شعرها الذاتي الى الوراء — كل هذا في وقت واحد .

في هذه الوهلة أحس بالهدوء والراحة . لم يكن شاعرا بقلق ولاتعب يرتفعان الى مقدار ما أحس به من

هدوء وراحة عندما دخلت . فجعل يسأل نفسه عن احتمال النسبة بين الضدين كأنه يعمل معادلة حسابية . ثم مالبث ان انصرف عن افكاره كأنما عد ذلك خسارة ... خسارة الا يراقب هباتها في هذه اللحظات . وكانت قد اخرجت من حقيبة يدها منديلا صغيرا واخذت تمسح ما تحت عينيها .

لم يكن هناك دموع - ولكن .. وجهها كان كسماء تنذر بالمطر - بادية القلق والرقة والانكسار . ولو انه هو الآن في الخامسة والثلاثين الا انه شعر نحوها بالابوة . الحنين على راوئس فمها كأنه بيت شعر يوقظ الحماسة . ووجد نفسه على وشك ان يسألها سؤاله المألوف .

« لماذا تاخرت ... خيرا ... »

فالقاء تافها لا معنى له وفي هذه اللحظة اخرجت هي ورقة ملفوفة ومنها ... سندوتش صغير الحجم .. ومن خلال ابتسامة مغتصبة القت اليه بكلمة « اتفضل » ثم قطعت منه .

كانت تاكل بطريقة من يريد ان يحفظ لنفسه الحياة فقط . وتعمل بطريقة من يريد ان يحرق نشاطه كليا . وتتكلم بطريقة من يريد الا يقول الا المطلوب . وكان على وجهها اليوم علامات سهر وارق . بلعها سور من صمت متعمد .

وعاد هو فاكب على الاوراق . وكان صوت الحرف يصل متناثرا من خلال الصمت . خيل اليه انه يتحول الى رشاش ممطر يتناثر على وجهها الساهم من فوهة « بحاجة »

لكنه على كل احس بشيء يستيقظ فيه . احس بالخوف من حبها ومن التجربة المرعبة . تجربة ان تاخذه فتاة من زوجته وولديه ... كلا ... او جزءا ... وهو كرجل يؤمن بالارقام يؤمن ايضا بان ادنى درجات الخلل يوهي البناء كله كسقوط « الصفر » في خسة ما ...

وكانت هي تاكل ... قطعة وجرعة من كوب الشاي . ورائحة عطر وحشي - غير متناسب مع مظهرها الوادع - تملأ جو الغرفة .

ثم ما لبثت ان فرغت من طعامها . ورآها من بين اهدابه مكبة على العمل تحت عينيها هلالان من ورقة السندوتش

فسمع نفسه يهتف في نفسه : « انها تحترق !! ترى لماذا ؟! »

ولم يكن هذا الصفير الا ترجمة عن شعور يهدده . لم يبلغ الذروة بعد . بدت بوادره ليلة امس ... الليلة الماضية فقط ... حين فطن الى نفسه وهو يوازن في صمت ثقيل بين انف وانف . وفم وفم . ثم اللون والشعر والصوت ... لها هي ... ولزوجته !!

ثم تماسك في مكانه . وقف عند نقطة معينة من الافكار كمن يخاف ان يتدحرج . والتقط اكبر اشائه من على الارض ورفعه وصار يقلبه باعلى صوت حتى ملأ سمع نفسه بصوت قبلاته . وذهب الى مكان ما من المسكن واحضر الراديو ليبدد افكار نفسه ...

كان ذلك امس ... في سواد الليلة الماضية ... لكن الآنسة ظهرت له الرم كحقيقة لا تقبل الجدل . كحركة الجنين غير المرغوب فيه في بطن الأم . ليس هناك طريق ثالث بين الاجهاض والاكتمال . ومع انعدام الطريق الثالث فان للطريقين مخاطرهما واوجاعهما .

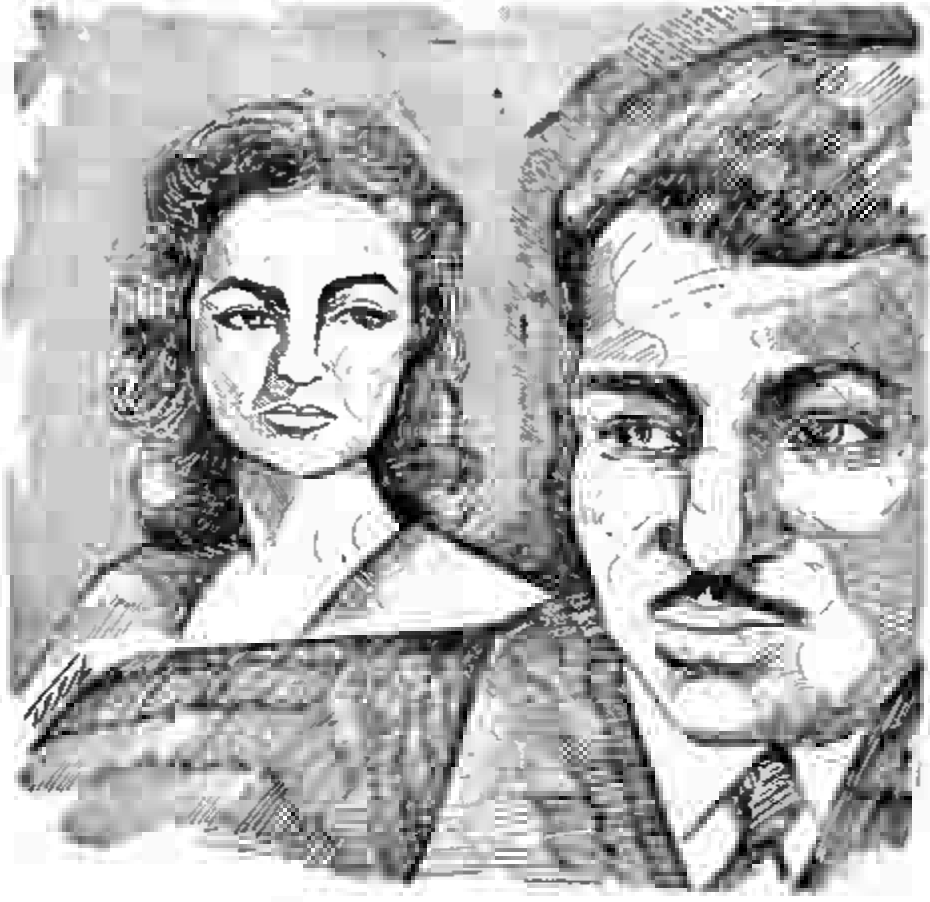

قام فخرج من الحجرة لا يدرى الى أين . بدا له الممر الطويل العارى من « المشاية » المؤدى الى السلم مثل مزدوج ما بين الحسة والنار . فمشى ساهما لا يأبه لسؤال أحد من الجمهور وكان الصحيح الخارجى صدى لما فى نفسه .

ونزل الى الشارع ثم عاد . قطع نفس الطريق . عبر الممر وذلف الى الحجرة . وعندما سمعت هى وقع أقدامه نهضت كس وحد الحل . هتفت بصوتها الواهن :

ـ « أستاذ كامل ... جئت فى الوقت المناسب ... طلبونى فى البيت لأمر طارىء وكان لابد أن أحضر قبل أن أنصرف ... تسمح ؟ »

فسأل باهتمام غير مألوف :

ـ ممكن أن أعرف ما بك يا آنسة ؟..

وفتح اهتمامه بابا كان مغلقا . فتحه على نفسه وعلى الآنسة . فلم يكد يكمل سؤاله حتى اجهشت بالبكاء .

احس بالألم والخجل والحيرة فى وقت واحد . ل ... وبشعور مشوش . شعور من سبب لها كل الآلام التى سكبت دموعها .

فقام وامسك كتفها . ورجاها فى هدوء أن تجلس على كرسى وقدم لها

قرصا من الاسبرين وجرعة من الماء .

وما لبثت ان تمالكت نفسها . ثم استسمحت تعالب بقية دمعها أما هو فكان في استكانة من غلب تماما على أمره .

ظلل صمت كانت عباءته فيها ترعى محاسن وجهها قطعته عليه بأن رفعت وجهها اليه وقالت معتذرة :

ـ متأسفة ... أنا متأسفة لما حدث !!

ـ بالعكس . متأسف أنا ... أنا الذي ... فقاطعته .

ـ هل تسمح لي بالخروج . آه .. (وضحكت من بين أسنانها كفتاة غريبة عن التي كانت تبكي) عندما ... حادث سعيد .

وعادت تضحك في خفوت ووجهها نحو حجرها كما يعرد طائر نصف نائم قال :

ـ من ؟

ـ زوجة ابي !!

ـ آآآه ... زوووجة ابيك

فهزت رأسها مؤمنة وعادت ترمقه بكل عينيها .

ـ انت بلا أم ؟!

ـ منذ طفولتي

ـ ولك اخوة ؟!

ـ منها فقط !!

فابتسم السيد في بطء كمن تفهم معضلة .

ـ وهي التي . تلد ؟!

فاطرقت خجلا واستطرد هو :

ـ وبهذه المناسبة ... ما موقعها من فكرة ... آ ... زواجك ؟

فعاودها البكاء . فنهضت ومدت يدها مصافحة وهي تقول في تهدلك موسى :

ـ في وقت آخر ... ارجوك ... سعيدة .

عندما دخل المساء أحس بوحشة الليل . ومع الوحشة واستطالة الوقت وانتظار اليوم التالي بدت له الأمسية آمال حقيقية لا تقبل الجدل ... كحركة الحيين عبر المرعوب فيه . وفي هذه اللحظة كانت الساعة تدق التاسعة في احدى روايا البيت . فذكرته تلك الرنة المألوفة بأزمات سن الشباب الاول وكأنما عادت تقص عليه

ـ بحركة البندول ـ ذكرى كبوات العاطفة . فشعر انه يعيش في الماضي لكن ـ مع وخزة حزن ـ خيل اليه انه دون سلوى الصراع الذي بدا في هذه الليلة مثل حبل يشد طريق الأفق .

كانت الساعة ترسل آخر دقاتها . وما كاد السكون يستتب حتى سمع صراخ طفله الصغير . خيل اليه انه جار ... انه نوع غير الذي يسمعه منه كل ليلة . وكان صوت امه تناغيه قليلا او يلهيه ثم يتركه في يأس ويعود السيد الى افكاره فلا يلبث ان يعود الطفل الى صراخه .

جعل هذه الليلة يغير صرخة الطفل بقلبه ... شعر انها احتجاج ورفض وحنين ... ثم لحظات يأس ودمعة مقهورة . ثم عودة الى أول الحلقة .

وبعد ساعة تقد كل هذا الى قلبه . شعر ان طفله محتاج الى معونة فقام ليسأل الأم .

انتسبت والأسى على وجهها . لم ترد على سؤاله ـ كانت تريد ظهر الطفل عله يهدأ . وكانت خلجات من اللوم على اهدابه . لكن الأب راى كف ابنه الصغيرة تتسلل نحو صدر أمه . والأم تحول بينها وبين ما تريد ...

فابتسم الأب . فقد كان ابنه أيضا في صراع ... امرأة تريد ان تفصله

عنها ... تريد له ان ينظم ، فولاها ظهره وخرج .

وبات طول الليل يستمع الى الانين، كان انحناء في احساس هذا الصغير ركزت في جرعات اللبن ... كل الفواكه والطير واللحم ... والحب والحب .. وهو يقاتل لاقرار دستوره بفمه ويديه .

وعندما يعلب النوم الثلاثة يستيقظون على صرخة حنين هي في واقع الأب صدى لحلم ليلته . وواقع الام مر وحلو مثل واقع الطفل من مرارة « الصبار » على ثدي الام وهي تخالط حلاوة اللبن .

وهكذا بات الثلاثة ...

وعند الصباح كان ذاهبا الى مكتبه وهو يحاول ان يتمثل ازمة طفله ويعيشها . لكنه عندما دخل ... لم يجد الآنسة ... ولم تحضر اليوم .

وفي الليلة الثانية عادت التجربة نفسها . تجربة الحنين والبكاء . وذهب الأب الى مكتبه في الصباح فلم يجد الآنسة . فخيل اليه ان القدر أعاده طفلا صغيرا . كتب عليه الفطام وذهن ثدي امه « بالصبار » .

فجلس يحملق في مكانها الخالي ويتصور ان حلوه بالنسبة اليه امثل وصبح . فقد كان يمشي مع طفله في طريق واحد . كل منهما مجبر على السلوان .

بعد خمسة ايام عادت الآنسة ...

دخلت فوجدت نظام الحجرة مغيرا. مكتب الأستاذ كامل مكان مكتبها غير مكتبين آخرين جلس على أحدهما رجل مسن وعلى الثاني شاب نحيل وخلف كل منهما رفوف ودوسيهات ... دنيا ... تغيرت معالمها .

ولم يكن الاستاذ كامل حاضرا . كان في الادارة العامة ... وعندما دخلت الآنسة صحك في وجهها الرجل المسن وقال وهو يهرش بالقلم خلف اذنه ويبتسم من خلال طقم الاسنان : .

ـ مكتبك تحت يا انسة ...

فدهشت . وسألت :

ـ واين الاستاذ كامل ؟

فرد نفس الموظف :

ـ الآن ... في الادارة العامة ... ومن هناك الى البيت ...

كانت الآنسة تتدبر لتأخذ طريقها الى مكانها الجديد لكن الموظف المسن استوقفها وهو يقدم لها يده بشيء وهو يبتسم :

ـ خذي هذه !!

ـ ما هذا ؟

فقال من خلال ضحكه :

ـ قطعة شيكولاته ... قدمها لي الاستاذ كامل مما اشتراه لابنه المفطوم ... (هي هي) ليس لي أسنان لامضغها ... خذيها انت .

أخذتها الآنسة في هدوء لم يخل من الحزن . وقفت قليلا في وسط الحجرة ثم التفت عيناها نحو الشاب ... كان سنهما قلقا يدخن ناسيا نفسه . فتقدمت اليه ومدت يدها بقطعة الشيكولاته قبل ان تخرج وهي تقول له بصوتها الوانى :

ـ انت الذي تستطيع ان تأكلها هل تحب أن تأخذها ؟!

فقال بدهشة وسعادة :

ـ نعم نعم نعم ...

سلا الطفل الرضيع ثم سلا الأب كذلك . أما الشاب النحيل فقد لوحظ عليه بعد اسبوع من أكله الشيكولاته ان كشوف حساباته أصبحت مليئة بالأخطاء